الفونيم :

الفونيم وحدة صوتية صغرى ، لا يمكن تجزئتها إلى وحدات أصغر منها ، و تكتسب ا لمفردة بهذه الوحدة معنى خاصا ، يتغير هذا المعنى بتغير تلك الوحدة ، على نحو ما نرى في كلمتي / : ما لَ /و / قالَ / فالميم فونيم ، و القاف فونيم ، بدليل أننا عندما حولنا صورة الفعل / مال / ومصدره الميل إلى صورة الفعل / قال / و مصدره القول تغير المعنى.

نظريات الفونيم :

كان للعلماء في الفونيم معانٍ شتّى ، ومذاهب متعددة ، و نظريات متباينة ، ومن أشهر هذه النظريات ما يلي -:

النظرية العقلية النفسية :

صاحب النظرية بدوان دي كورتيني ينظر الى الفونيم نظرة نفسية وهو عنده صوتا مفردا له تجريد ذهني أو صورة ذهنية يستحضرها المتكلم الى عقله بالإرادة ويحاول بلا وعي ان ينطقها في الكلام فينجح في بعض الاحيان في تحقيق صورة الصوت بالنطق ، ولكنه يخفق في بعض الأحيان فيستحضر أقرب الاصوات الى هذه الصورة ، وتابعه سابير الذي يستعمل أنماط الاصوات في اللغة أو اصطلاح أصوات مثالية ليقصد الفونيمات من وجهة نظر عقلية

فابن اللغة " يحتفظ في ذهنه بصور لأصوات لغته وهو عندما يعيد نطقه ، لصوت ما ، إنما يحاول نطق الصوت بتقليد الصورة

العقلية ، و الانطباع النفسي الذي يحمله عن ذلك الصوت و هذا الانطباع هو الذي يبين لمتكلم

اللغة العربية مثلاً ، أن الانجليزي عند نطقه لكلمة " نحن " لم يأت بالنون لثوية أسنانية ، و إنما جاء بها شبيهة بنون : ينفع ، و انكسر .

النظرية العضوية التركيبية :

وهو وحدة صوتية لها معنىً في المجموعة الكلامية ولها بيئة صوتية مثل النون في : إنْ ثابَ ، وإنْ ظهر ، وإنْ شاء ، وإن قال ، وفي جميع الأحوال النون هو ثابت فالحاء والهمزة والثاء والظاء والشين والقاف جميعها تسمَّى بيئة الصوت فلم تتغير النون في كل مواضعها ، أمَّا الصور التي ظهرت فيها النون في بيئتها الصوتية تسمى الألفون فالنون هي نفسها لكن بيئتها تغيرت فتغيرت صورتها ولم يتغير المعنى وهي نون ان الشرطية ، لذا فإنَّ النون وحدة صوتية غير قابلة للتجزئة ، فإن تغيرت الوحدة الصوتية و بقيت أصوات الكلمة وصيغتها نفسهما وحصل تغيرا دلاليا فان هناك تغيرا في احدى الوحدات الصوتية وهو تغير في احدى فونيمات الكلمة كما في غاب وخاب وعاب وثاب وشاب ، وسفير وصفير ، ونذير ونظير و تين وطين فحلول صوت مكان آخر دليل على أنَّهما

ينتميان الى فونيمين مختلفين وبالتالي الى معنيين مختلفي وهو ما يسمى في العربية بالثنائيات الصغرى إذا استبدال فونيم مكان آخر يغير معنى الكلمة .

وكذلك اضافة احدى الوحدات الصوتية يغير معنى الكلمة ، فإضافة وحدة صوتية مثل همزة التعدية والتضعيف والالف والتاء في شرَقَ وأشرَقَ و شرَّقَ وشارق وشَرَقَتْ و شرقْتُ ، جميعها غيَّرَت من مدلولات الكلمة الثلاثية .

وأهم أصحاب هذه النظرية هو دانيال جونز الذي يهتم بعائلة الصوت أو بيئته .

النظرية الوظيفية التركيبية :

ترفض هذه الطائفة من العلماء الإدراك النفسي للفونيم ، ويقولون أنَّ الفونيم لا يوصف عن طريق الأصوات التي توضحه بل يحددونه في ضوء وظيفته التركيبية في اللغة . وفي مقدمة هؤلاء العلماء تروبتسكوي الذي يعتبر الفونيم أحد الخلافات الصغرى التي تفرق بين الكلمات في المعنى وهي الحركات مثل عَقْد وعُقْد ، أو ما يسمى في العربية بالمثلثات وهو تغير حركة الحرف الاول بالفتح مرة وبالضم اخرى وبالكسر ثالثة مع تغير الدلالة ، مثل كلمة البر فتأتي البُر بمعنى القمح والبَر الرجل التقي بمعنى والبِر بمعنى المعروف ، وكذلك الحَـِمام بالفتح الطائر المعروف ، وبالكسر الموت ، وبالضم اسم رجل معروف . ومنها السَّـِهام بالفتح شدة الحر وبالكسر النبال ، وبالضم لعاب الشمس .

ويحدد تروبتسكوي الفونيمات بأنها وحدات تشكيلية لا يمكن تعريفها إلَّا بالرجوع الى وظيفتها في تركيب كل لغة على حدة . والفونيم عنده مجموع الصفات التشكيلية ذات الصلة بالموضوع والفونيم فكرة لغوية لا نفسية وهذه النظرة تمنحنا مادة جوهرية لتحليل التراكيب اللغوية وأساسا قويا للكتابة الصوتية .

ويتابعه بلوموفيلد ويعرّف الفونيمات بأنها : الوحدة الصغرى من الصفات المميزة للأصوات " و " أصغر ما يحدث في المعنى اختلافا في المعنى من الوحدات ، وقال إنَّ فونيمات اللغة ليست أصواتا ولكنها صفات من الأصوات التي ينتجها المتكلم بالتدريب ويميزها في تيار الكلام العملي .

النظرة التجريدية :

واصحاب هذه النظرية هيلمسلف و توادل فهما يران أنَّ الفونيم ليس له وجود حقيقي من الناحية العضوية ولا من الناحية النفسية وإنَّما هو وحدة خرافية تخيلية مصطنعة ، ويعدّ أصحاب هذه النظرية " الفونيمات مستقلة استقلالا كاملا عن الخصائص الصوتية المرتبطة بها " وفحوى هذه النظرية إنَّ بعض الأصوات لها ملامح مشتركة كثيرة يمكن أنْ تُلَخَّص في مثال أو صورة أو انطباع ذهني تعتبر صوتا تجريديا على المستوى الأول ، أمَّا المستوى الثاني من التجريد فيكون عندما يستخلص المرء عائلة كاملة من هذه الأصوات التجريدية في شكل صورة عامة ، وهذه الأصوات التجريدية على المستوى الثاني هي الفونيمات ، وقد وُجِّهت الى هذه النظرية اعتراضات

كثيرة لأنها تحاول أ، تخرج من الإطار المعنوي واللغوي للفونيم والتعامل معه بنظرة تجريدية صرفة مما يحول بينها وبين الوصول الى نتائج مقنعة في هذا الصدد .

أهمية نظرية الفونيم :

أن أهمية هذه النظرية تكمن في النظر إلى الوحدة الصوتية المميزة ، على أنها " أصوات أساسية في اللغة ، و جوده في الكلمة يحقق له المعنى ، و حذفه منها أو استبدال صوت أساس آخر به يغير معناها ، بينما نجد أفراد أو أعضاء هذه الوحدة الصوتية المميزة لا تكتسب خصوصية التأثير في المعنى ، إذا ما تعاورت مواقعها ، على أن هذا التعاور ، أ و التبادل لا يمكن وقوعه من الناحية العملية ، فكل وجه من وجوه النطق السليم يرتبط بموقع لا يعدوه" .

الألفون :

هو شكل أو صورة من صور الفونيم يأتي في السياق التركيبي للأصوات (الكلمة أو الجملة) كما في كُرة وكِلاب ، فالكاف في اللفظين يختلف نطقهما الاول مرتفع والآخر منخفض ، وذلك بتأثير الأصوات المجاورة للفونيم وكذلك الحال في النون ان يشاء ، وان حصل ، وان يراك ، وعنك ومنك فالنون تختلف في كل نطق من هذه التراكيب ، فالفونيم يشتمل على عدد من الألفونات المتشابهة أو التنوعات الصوتية التي يتوقف استعمالها على موقعها في الكلمة وعلى نوع الأصوات المجاورة ، وهو لا يؤثر على معنى البناء أو التركيب وإنَّما يعطي خصيصة أو صورة من صور الألفون . لذا فإنَّ الألفون هو سمة من سمات نطق الفونيم بتأثير الأصوات المجاورة من الصوائت والصوامت .

الفونولوجيا :

"هو العلم الذي يهتم بدراسة الصوت اللغوي داخل البنية ، أي من حيث علاقته بالأصوات الاخرى من ناحية المعنى أو وظيفة الصوت في تحديد المعنى من ناحية أخرى " [1].

إذاً هذا العلم يختص بالنظر في القواعد والقوانين الخاصة بلغة ما بعينها ، فهو يُعنى بأثر الصوت اللغوي في تركيب الكلام نحوِه وصرفه ولهذا يمكن أنْ يطلق عليه علم الأصوات الذي يخدم بنية الكلمات وتركيب الجمل في لغة من اللغات [2]. ومثال على ذلك صوت النون الذي هو احد الأصوات اللثوية المجهورة الانفية وهو من الأصوات التي لها صور متعددة في النطق ما بين ظاهر ومخفي ومدغم لكن اذا حلَّ صوت آخر محل النون في اي لفظ تغيَّرَ مدلول البنية الصوتية كأن يحل الدال محل النون في كلمة نهر لتصبح دهر وهو الفونيم ، أمَّا الصور المختلفة أو التنوعات المختلفة لنطق صوت واحد التي لا تؤدي الى اختلاف المعنى فيطلق عليها الألفون وكما هو الحال في فونيم اللام في لفظ (والله) و(بالله) ، الاول مفخم والثاني مرقق ، والكاف في كُرة وكِتاب وكَمال ، فاختلفت الكاف مع كل حركة .

[1] مقدمة لدراسة علم اللغة ، حلمي خليل ، 66 .
[2] ينظر : في علم الأصوات اللغوية ، البدراوي زهران ، 305 .

وكذلك من النظام الصوتي في العربية التي تتناوله الفونولوجيا لا يبتدأ بساكن ولا يقف على متحرك وهي قاعدة عامة فطن لها علماء العربية قديما لذا خرجوا من مأزقها بهمزة الوصل في (ال) التعريف وفي الاسماء السماعية (ابن وابنة واثنان واثنتان وامرؤ وامرأة واست) وفي الافعال على وزن (افتعل وانفعل واستفعل) ماضيها والامر منها والمصدر كافتخَرَ وافتخِرْ وافتخار ، وانقطَعَ وانقطِعْ وانقطاع ، استخرَجَ واستخرِجْ واستخراج .

ومن النظام الصوتي في العربية مثلا عدم توالي صامتين أول الكلمة ، أو في المقطع الواحد عكس اللغة الانكليزية فقد يتوالى صامتين أو اكثر في الكلمة نحو : (start), و (streat) ، وكذلك من الأنماط التي تدرسها الفونولوجيا ما نسميها الظواهر الصوتية كالإدغام والاقلاب والاعلال وغيرها .

وعلى هذا فالتحليل الفونولوجي يتناول أصوات اللغة بوصفها عناصر رمزية تتكون منها اللغة فلا يهتم بالخصائص النطقية والفيزيائية والسمعية للأصوات بوصفها هدفا في ذاتها ، بل يهتم بها بوصفها مجرد وسيلة لتحديد الصوت اللغوي في إطار اللغة الواحدة ، لذا يتضح الفرق بين البحث الصوتي الفونتيكي والبحث الفونولوجي من خلال الفرق بين ما تسجله اجهزة القياس وما يؤثر في المعنى

إذا فعلم الفونولوجيا يدرس أصوات اللغة عندما تركب في كلمات تعبر عن المعاني ، أي عندما تقوم بوظيفتها فتدرس ضوابط هذا التركيب ، وما يسوغ منها وما لا يسوغ والتغيرات التي قد تعتري الصوت اللغوي في مخرجه أو صفاته في مختلف حالات تركيبه والقيمة الوظيفية له في شتى الأوضاع التركيبية .

أمَّا الفونولوجيا فموقعها من بين العمليات العقلية بالنسبة الى مراحل الكلام قبل أن ندركه تكون قبل الفونتيك ، ومراحل الكلام هي[3] :

المرحلة الاولى : تتكون الفكرة لدى المتحدث .
المرحلة الثانية : يقوم الدماغ بجمع المفردات ذات العلاقة بتلك الفكرة .
المرحلة الثالثة : يطبق قواعد الصرف والنحو على المفردات .
المرحلة الرابعة :تأتي مرحلة الفونولوجيا الوظيفية التي يتم فيها تحديد الأصوات ذات العلاقة بتلك المفردات .
المرحلة الخامسة : وأخيرا تأتي المرحلة الفونتيكية ، فتصدر الأوامر من الدماغ الى عضلات الجهاز الصوتي عبر الأعصاب فيقوم الجهاز الصوتي بإخراج الأصوات اللغوية التي نسمعها أثناء التحدث مع الآخرين . فالمستوى الفونتيكي يأتي بعد الفونولوجيا .

[3] ينظر : الصوتيات العربية ، منصور محمد الغامدي ، 12 .